

(رؤيا التضاد)

بين ارتهانات الواقع، وسلطة المتخيل قراءة في رواية "رحلة ابن فطومة"
للروائي نجيب محفوظ

د. جودي فارس البطاينة

قسم اللغة العربية / كلية الآداب

جامعة جرش الأهلية / المملكة الأردنية الهاشمية

القبول

٢٠١١ / ١٢ / ٠٨

الاستلام

٢٠١١ / ١٠ / ١٨

ABSTRACT

The present study investigates the vision of paradox upon which the Arab novelist Naguib Mahfouz built his novel *Rihlat Ibn Fattoma*-The Journey of Ibn Fatouma. The paper views the paradox as being carried out in this novel through the paradox made between reality and imagination. Reality was pictured throughout the novel as an image that contradicts the religious values and ideas, virtually an image of truth and honesty, which were differently dealt with in reality. Mahfouz's imagination thus comes to serve as a container to express the vision of paradox.

ملخص البحث

يأتي هذا البحث لبيان رؤيا التضاد ، التي قامت عليها رواية "رحلة ابن فطومة" للروائي العربي الكبير نجيب محفوظ ، حيث ترى هذه الدراسة، أن الرواية حملت حالة التضاد بين (الواقع، والممكن)، وأن الواقع بكل معطياته، صورة متضادة مع القيم، والأفكار الدينيّة، التي في أصلها صورة للصدق ، لكنّ تعامل الواقع معها مختلف؛ ولهذا يأتي المتخيل عند نجيب محفوظ ليشكّل حاضنة لرؤيا التضاد .

((رؤيا التضاد))^١ بين ارتهانات الواقع وسلطة المتخيل قراءة في رواية ((رحلة ابن

فطومة)) للروائي المصري نجيب محفوظ

لم يكن المتخيل^٢ في لحظة ما متوافقاً مع الواقع، ولو كان كذلك لانتهى الإبداع بأنواعه وتعدده، وأصبح الإنسان في حالة من التوافق الدائم مع هذا الواقع، ولكن حالة التضاد، والتعارض، اللذين تعيشهما الذات المبدعة مع هذا الواقع تحث لحظة الخروج من الواقع إلى المتخيل، إذ يصبح المتخيل وسلطته هو مساحة الحرية، التي من خلالها يمارس المبدع نشاطه الفكري والرؤيوي، وينقل التضادية، التي يعيشها مع الواقع إلى ساحة المتخيل، فنجد المتخيل يصبح حالة من التعارض الدائم بين ما هو قائم (الواقع) وبين ما هو مغيب أو مفقود، حيث "الرؤيا تمثل ما هو غير موجود على أنه موجود، وذلك عن طريق الإحساس الرهيف، والخيال المبدع، وهي أيضا شعور بأن المستحيل، في رأي الآخرين، ممكن التحقيق، بحيث يبرز لصاحب الرؤيا في وضوح صاعق كأنه مائل أمام عينيه. وقد تؤدي هذه الحالة إلى تعبئة جميع القوى في تحقيق ما هو مستحيل أو معجز"^٣.

وهنا "تصبح الرواية - فيما هي متخيل - تعانق معطيات الواقع الاجتماعي، من خلال مستويات عدة، وتطمح في أن تعانق التاريخ الإنساني، من خلال زوايا متعددة، وتحلم بمعاينة الحقيقة الكلية، وأن تجاوز الوجود، المليء بالرداءة والسقوط، والواحدية، لتخلق عالماً رمزياً، مليئاً بمفرداته المتجاذلة، ومستوياته المتداخلة"^٤.

إنّ هذا ما نجده في رواية نجيب محفوظ "رحلة ابن فطومة". حيث وظّف فيها محفوظ حالة من التجريب السردي المستمد من التراث السردى، إذ إن نجيب محفوظ نشر بين عامي ١٩٧١-١٩٩٥ مجموعة من الروايات تدور حول الحوار مع التراث، وكل من هذه الروايات تتخذ لنفسها نقطة مرجعية أو ظاهرة ثقافية، وعلى سبيل المثال تستدعي رواية "ليالي ألف ليلة وليلة"، ١٩٧٨، حكايات شهرزاد، وتستلهم "رحلة ابن فطومة" ١٩٨٣، المغامرة المشهورة في القرن الرابع عشر التي قام بها الرحالة المغربي ابن بطّوطة^٥.

(^١) رؤيا التضاد هي رؤيا تعيد النظر في كل ما يحيط بنا إذ يسعى (ابن فطومة) إلى معاينة الحقيقة الكلية للكون وتجاوز الواقع من خلال صراع الثنائيات (المادي، والروحي).

(^٢) حول المتخيل الروائي : انظر: التخييل وبناء الخطاب الروائي في الرواية العربية، التركيب السردى، عبد الفتاح الحجمري، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢.

(^٣) المعجم الأدبي، جبور عبد النور، دار العلم للملايين، بيروت، ط١، ١٩٧٩، ص١٣٤.

(^٤) ضفائر الثنائيات المتضادة، قراءة في رواية " الزمن الآخر " لإدوار الخراط، أمجد ريان، مجلة فصول، م٨، ع١، ٢، ١٩٨٩. ص١٤٤-١٥٤.

(^٥) توظيف التراث في روايات نجيب محفوظ، سعيد شوقي، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠، ص٤٥.

وللمزيد حول ذلك انظر، نجيب محفوظ والتراث، محمد القضاة، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، عمان، الأردن، ربيع، ١٩٩٧. وانظر، الرواية والتراث السردى، سعيد يقطين، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢.

تُدْرَج رواية "رحلة ابن فطومة"، عند نجيب محفوظ، في إطار المرحلة الروائية، التي تبنّت الفكر الفلسفي^١، ووظفته في طرح الرؤى الفكرية عند نجيب محفوظ، أو ما يسمّى "اليوتوبيا"^٢، إذ جاءت هذه الرواية تعبيراً عن حالة الإنسان المأزوم، الذي يكتشف، في لحظة ما، شدة المفارقة بين جوهر النظام الديني، والاجتماعي، والثقافي (الأيديولوجي) عامة، في صورته الأصلية، وما هو عليه من قيم، ونظم دينية، واجتماعية، وثقافية، في صورة ممارستها في الواقع المعيش، مما يدفع الذات، إلى حالة من المواجهة، مع الواقع، والبحث عن صورة التغيير، وهنا تظهر سلطة المتخيّل؛ ليصبح هذا المتخيّل مساحة للتغيير اليوتوبي، الذي يبقى مرهوناً بصورة الواقع، وعجائبيته، التي تفوق في عجائبيتها المتخيّل وسلطته في بعض الأحيان وذلك في إطار السرد المضاد * Dysnarration الذي يقدم حالة التعارض بين الواقعي والمتخيّل.

وهنا، تأتي سلطة المتخيّل من أجل أن تحقق للذات حالة البحث عن التوازن، التي تفقدها الذات، في لحظة من لحظات المواجهة مع الآخر، ولهذا فإن سلطة المتخيّل تكون دائماً بحثاً عن مخرج من صورة الواقع وارتعاناته، وتكون علاقة الواقع بالمتخيّل، هي علاقة تضاد تقوم على الاستبدال من أجل الوصول إلى التوازن.

يقول ميخائيل باختين: في هذا الإطار "ونتيجة للطلاق القائم بين كينونة الواقع، وما يجب أن يكون عليه المثل الأعلى، تنشأ جدلية تؤثر في بناء الرواية من خلال شكلين: انعدام الانسجام بين السريرة وجوهرها في مجال الفعل، ثم عجز العالم الغريب عن المثل الأعلى، عن الاكتمال

^١ انظر حول ذلك: نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، عبد الله خليفة، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٧.

* الطوباوية (الايوتوبيا) صورة (مثال) لمجتمع خيالي منشود، وبما أن هذا المثال كان غالباً يبدو متعديراً على التحقيق عملياً، صار مفهوم "الطوباوية" يكتسب بمرور الزمن، طابع استعارة، وغداً مرادفاً لأي مشروع، - اجتماعي، علمي، تكنولوجي، يعتبر غير قابل للتنفيذ، إن الطوباوية كشكل لتجلي قدرة الوعي، على الخيال الخصب، كانت تقوم منذ ظهورها في المجتمع اليوناني القديم، بعدد من الوظائف الاجتماعية الهامة. فقد كانت تعبر عن مصالح القوى الاجتماعية المحرومة من السلطة السياسية فجاءت لونا من النقد المباشر أو غير المباشر للمجت مع القائم " انظر: المعجم الفلسفي المختصر، دار التقدم، موسكو، ترجمة توفيق سلوم ١٩٨٦.

^٢ الخطاب الثقافي للإبداع الأدبي عند نجيب محفوظ، القضايا الفلسفية في عالم نجيب محفوظ الفلسفي، رمضان بسطويس محمد، مجلة فصول، م١٦، ع٣، شتاء ١٩٩٧م، ص ٣٠٠-٣١٥.

* إنه معارضة القصة لنفسها لتبديد أوهام القارئ، وهذه الأوهام هي:

- وهم المرجع الذي يولده في القارئ اعتبار القصة صورة لعالم الواقع، وإعادة إنتاج "ما هو قابل للوقوع"
- وهم التواصل أو منطق السبب والنتيجة الذي يولده الخلط بين التعاقب (حدث يأتي بعد حدث آخر) والاستتباع (حدث ينتج عن حدث سابق)
- وهم الشفافية الذي يولده اعتبار القصة محايدة لا تهدف الى غير التسلي...."انظر، معجم مصطلحات نقد الرواية، لطيف زيتوني، عربي، انجليزي، فرنسي، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، ط ١، ٢٠٠٢، مادة " سرد"

فعلياً وعن إدراك الكليّة والالتحام .. وهذه البنية اللامستمرة للعالم الخارجي، تستمد وجودها من كون الأفكار عاجزة عن الولوج إلى داخل الواقع نفسه، وهو ما يجعل من الواقع عنصراً منقطعاً متنازلاً، ويدفعه إلى إقامة علاقة واضحة مع نسق الأفكار المكوّن لمعناه^(١) .
لقد نشأت رواية " رحلة ابن فطومة " من رحم التضاد بين الواقعي بمعطياته وارتتهاناته، والمتخيل وسلطته، التي يمارسها على الروائي في لحظة البحث عن صورة جديدة لهذا الواقع .
تتلخص "رحلة ابن فطومة": بخروج بطلها "قنديل محمد العنابي" من وطنه دار الإسلام - بعدما استولى الحاجب الثالث للوالي على خطيبته حليلة عدلي الطنطاوي، و بعد أن تزوجت أمه من معلّمه الشيخ مغاغة - إلى البحث عن المعرفة والعدل، في : دار المشرق - دار الحيرة - دار الحلبة - دار الأم ان - دار الغروب . فيسجّل في رحلته ما شاهده في هذه البلاد من أنظمة، وقوانين، وعادات، وديانات، وما واجهه من تحديات ومصاعب، لم تنته عن هدفه من أجل الوصول إلى دار الجبل، التي هي دار السعادة، ولكن تكون نهاية الرحلة قبل أن يصل دار الجبل، ولا يُعرف بعد ذلك ما الذي حدث مع قنديل محمد العنابي وتنتهي الرحلة، بهذه الخاتمة: "... بهذه الكلمات خُتم مخطوط رحلة "قنديل محمد العنابي" الشهير بابن فطومة، ولم يرد

في كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك،

هل واصل رحلته أو هلك في الطريق؟

هل دخل دار الجبل وأي حظ صادفه فيها؟

وهل أقام بها عمره أو عاد إلى وطنه كما نوى؟

وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟

علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة"^(٢).

لقد بزجت رواية "رحلة ابن فطومة"، كما ترى الدارسة على "رؤيا التضاد"، إذ مثّلت هذه الرؤيا، مُجمل معطيات الحركة الروائية، سواءً على مستوى البناء الخارجي أم على مستوى البناء الداخلي، ولعل هذا ما ستوقّف عنده الدراسة.

تضادية البناء الخارجي / تكاملية الدلالة:

جاء ترتيب الأبواب في رواية ابن فطومة : الوطن - دار المشرق - دار الحيرة - دار الحلبة - دار الأمان - دار الغروب - البداية، وهنا يتضح أن بداية التضاد تبدأ من وضع (البداية) في نهاية الرحلة (الرواية) وقلب منطق الترتيب، مع العلم أن الوضع المنطقي أن تكون البداية

(١) الخطاب الروائي، ميخائيل باختين، ترج مة، محمد برادة، دار الفكر للدراسات، الطبعة الأولى، القاهرة - باريس، ١٩٨٧، ص ١٢

(٢) "رحلة ابن فطومة"، نجيب محفوظ، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة ١٩٨٣، ص ١٥٨.

هي الباب الأول في الرحلة، ولعل هذا الأمر لا يغيب عن بال روائي مهما كان، فما بالك بنجيب محفوظ؟! إذًا، هذا الاختيار في البناء الخارجي للنص، كان وراءه رؤيا تتضاد مع ما هو كائن أو ما هو واقع، فالبدائيات في الواقع هي البدايات، والنهايات هي النهايات، في ترتيبها المنطقي الذي يبدأ بالشيء ثم ينتهي بما يتممه، ولكن في رؤيا نجيب محفوظ، المحمّلة بروح الرفض، والتمرد، على ما هو قائم، تأتي البداية لتكون نهاية، وتساهم في خلخلة البنية الواقعية، من خلال سلطة المتخيّل، الذي يجد فيه نجيب محفوظ صورة للتعبير عن حالة ما يجب أن يكون عليه الواقع.

إن وضع البداية، في نهاية البنية الروائية عند محفوظ، تحمل في داخلها حالة من الرؤيا الفلسفية، التي تتطرق من أن النهايات دائماً مفتوحة على بدايات جديدة، وبالتالي فإن صورة النهاية المطلقة مفقودة في حقيقتها، ومن هنا فإن حالة البحث عند الإنسان عن حقائق الأشياء دائماً في حالة بداية متجددة، ولهذا نراه عندما يصل سفح الجبل الذي يسبق الوصول إلى "دار الجبل" يعرض لنا حالة التضاد بين، ما كان يتوقعه من قرب دار الجبل، وبين حقيقة البعد لهذه الدار، هذا البعد الذي يفرض بدايات جديدة، تجعل الرواية لا تنتهي بل تبدأ من جديد:

"وقل صبرنا، وتعجلنا الرحيل، فهبطت القافلة سفح الجبل في أسبوعين، حتى بلغنا الصحراء. ودهمتنا دهشة، إذ ترامت الصحراء أمامنا كأنها بلا نهاية، ولم نكد نرى الجبل الآخر من شدة إيغاله في البعد، عجبت لخداع البصر، وأيقنت من أنه ستمضي أيام وأسابيع، قبل أن نصل إلى الجبل الآخر الذي تقوم على سطحه دار الجبل..."⁽¹⁾

لعله يمكن القول هنا إن صورة "البصر" في خداعها هي صورة الواقع في خداعه، وأن رؤية الأشياء في الواقع لا تكون على حقيقتها، وهنا يأتي دور المتخيّل، ودور البحث فيما وراء الأشياء، من خلال الرحلة الذهنية التي ينبتأها العقل الإنساني، من أجل الوصول إلى حقائق دائماً تكون في حالة موهومة، وهنا تتجذّر صورة التضاد بين الواقعي بارتئاننا، ته، والمتخيّل بسلطته التي يمارسها على الذات.

إن التضادية التي ينبتأها محفوظ في هذه الرواية لم تكن اعتباطية، بل جاءت في إطار تكامل الدلالة النصية، فالنهاية لا تكتمل إلا في إطار بداية جديدة، ولا تبدو ملامحها إلا في محايثتها مع البداية، فهما طرفا الوجود، وهما الإطار الذي من خلاله تعرف القيم.

ويستمر تضاد البناء الخارجي، في الرواية بين ترتيب دار المشرق ودار الغروب، بما يحمله كل عنوان من دلالة يضاد بها الآخر، فالمشرق هو عكس الغروب، و من المؤكد، فإن الرؤيا الروائية عند محفوظ قد قدّمت هذا في إطار الثنائية الضدية، التي تتكامل في صورة الواقعي وسلطة المتخيّل، ولعل هذا يمتد إلى تضادية الرؤيا في دار الحيرة ودار الأمان، فالحيرة هي حالة الالتباس وعدم وضوح الرؤيا، بينما الأمان هو الاستقرار، والوثوق مما هو كائن، وهنا

(1) المصدر نفسه، ص ١٥٦.

لنم ترى الدراسة تتجذّر حالة التضاد؛ لتعطي العمل الروائي البنيّة الكليّة التي تبحث عن محاولة الجمع بين ما هو كائن (الواقع) وبين ما يمكن أن يكون (المتخيّل)؛ فيولد جزء أو باب دار الحلبة معبراً عن الدلالة التي تحملها كلمة الحلبة من صراع بين الأطراف، التي تكون عليها، ولعلها هنا صراع الواقعي مع المتخيّل وحالة التناقض التي تفرق بينهما كما يتضح.

يمكن القول هنا إن البنيّة الخارجية التي جاءت عليها رواية "رحلة ابن فطومة" قد سارت في إطار "تضاد الرؤيا" التي عاشت بين ارتهانات الواقع وسلطة المتخيّل، وجعلت البنيّة الداخليّة التي ستحدث عنها الدراسة تنمو في الإطار ذاته.

تضادية البناء الداخلي / تكاملية الدلالة:

جاء البناء الداخلي في رواية نجيب محفوظ "رحلة ابن فطومة" مبنياً على حالة التضاد، التي تعيشها الذات من خلال علاقتها بالواقع، ولهذا فقد اختارت صورة الرحلة بما تحمله من دلالة الانتقال والارتحال من فضاء الواقع إلى فضاء آخر وهو هنا فضاء المتخيّل، ومن هنا تبدأ لحظة المفارقة والتضاد. فالرحلة، لا يمكن أن تأتي في سياق الحالة المستقرة للذات، فهي في مجملها، تعبير عن خروج من حالة التآزم، و محاولة بحث عن إعادة التوازن، الذي تفقده الذات، والخروج من الحيرة التي تعيشها، وبغض النظر عن صورة الرحلة؛ فان جوهر الانتقال من حالة إلى أخرى يكون هدفها، ولهذا، فإن "رحلة ابن فطومة" عند نجيب محفوظ، جاءت تعبيراً عن تآزم الذات في علاقتها مع الآخر بتعدد أطرافه، وهنا تصبح هي حالة الخروج من الواقعي المأزوم، إلى صورة متخيّلة تناقض الواقع، وتتضاد معه، في كل أطروحاته، وهي المنفذ إلى رغبات الذات وما تسعى إليه:

"- خانني الدين، خاننتي أمي، خاننتي حليلة، ألا لعنة الله على هذه الدار الزائفة ...

بدا كل شيء كالحاء، وبدءاً من أبسط الأفراد، مثل الشيخ عدلي الطنطاوي، حتى الوالي نفسه، مروراً بالفناس، ومعاملات تستحق الطوفان؛ ليحل محلها عالم جديد، نظيف، لم أتأثر بعطف أمي، وحرزها، ولا حكم الشيخ مغاغة التي ذرّها عليّ، بدت الدنيا صفراء كريهة لا تحتمل ولا تعاشر. وقالت لي أمي:

- يجب أن تتزوّج في أقرب وقت، ولعل الله يدخر لك أفضل ممن اخترت! فهزرت رأسي

رافضاً فقال الشيخ مغاغة:

- اشرح في العمل بلا تأخير.

فهزرت رأسي أيضاً.. فقال الرجل:

- لديك ولا شك خطة...؟

فقلت معرباً عن عواظفي الجائحة:

- أن أقوم برحلة!
 فتساءلت أُمِّي في انزعاج:
 - أي رحلة؟.. إنك لم تكدي تبلغ العشرين من عمرك!
 فقلت:
 - هي أنسب للرحلة...
 ونظرت إلى أستاذي ملياً وقلت:
 - سأزور المشرق والحيرة والحلبة ولكني لن أتوقف...^(١).
 إن صورة الرحلة، كما يقدمها محفوظ، جاءت تعبيراً عن حالة الخروج من التأزم الذي تواجهه الذات، وهي في الوقت ذاته، نتيجة التصادم بين الواقع والمتخيّل في لحظة ارتهان الواقع للذات، ومحاولة الذات الخروج من حالة الارتهان هذه، وذلك من خلال سلطة المتخيّل:
 "واستحوذ عليّ الحلم، وتلاشى الواقع، وتراعت دار الجبل لعين خيالي، كنجم معشوق، يعتلى عرشه وراء النجوم، فنضجت الرغبة الأبدية في الرحلة على لهيب الألم الدائم، وأذعن الشيخ مغاغة الجبيلي للواقع، فدعا صاحب القافلة للعشاء معنا"^(٢).
 يسيطر المتخيّل "الحلم" ويتلاشى الواقع في لحظة الحلم، ويصبح التصادم بين الاثنين صورة للخلاص "الرحلة"، ولعل الرحلة في صورتها السردية أو الفعلية هي انقطاع عن الواقع، وحضور لأمل ربما يكون فيه الخلاص "... ولبستني حال جديدة، فقل تفكيري في أحزاني، وهيمنت الرحلة على حواسي، وانفسخ أمامي مجال غير محدود للأمل..."^(٣).
 قلت إن "رحلة ابن فطومة"، خرجت من رحم التصادم الداخلي، في إطار البنية الداخلية للرواية، فبنية الشخصية الرئيسية في الرواية؛ وهي شخصية ابن فطومة، جاءت متضادة مع الواقع، حتى في اسمها، فالواقع عادة يُطلق اسم الأب ملحقاً باسم الابن، بينما هنا يأتي اسم الأم هو الملحق باسم الابن، وهذا في الإطار الواقع، نوع من التهكم، والعيب الذي يمكن أن يلحق بصورة الإنسان، فابن فطومة اسم أطلقه إخوته عليه لأنه ابن لامرأة أبيهم، ولعل هذه، يوضح صورة التصادم التي بنيت عليها شخصية ابن فطومة، هذه التصادم الذي انعكس داخل الحركة الروائية التي لازمت الشخصية، وجعلتها تبحث عن الخروج من أطر الواقع إلى أطر المتخيّل، بحثاً عن صورة التوازن، ومعرفة حقائق الأشياء، يقول ابن فطومة:
 "كان أبي محمد العنابي تاجر غلال مترعاً بالثراء. أنجب سبعة تجار مرموقين، وعمر جاوز الثمانين متمتعاً بالصحة والعافية. وفي الثمانين رأى أُمِّي الجميلة فطومة الأزهرية، وهي بنت سبعة عشر، آخر عنقود جزار يدعى الأزهرية قطائف، فغزت قلبه، وتزوج منها، وأقام معها

(١) المصدر نفسه، ص ١٧-١٨.

(٢) المصدر نفسه، ص ١٩.

(٣) المصدر نفسه، ص ٢٠.

في دار رحيبة، اشتراها باسمها محدثاً في أسرته غضباً وشغباً . اعتبر إخوتي الزواج لعبة قذرة غير مشروعة، واستعانوا على أبيهم بشفاعة القاضي، وكبير التجار، ولكنه مرق من قبضتهم مروق عاشق مسلوب الإرادة، فاعتدّ الزواج حقاً لا يقبل المناقشة، وراح ينهل من معين سعادته، بقلب مليء بالثقة (...). فمنذ حادثتي، وأنا ألتقي أجمل الكلمات، رغم ارتطامي بأقبح الفعال . وسماني أبي "قنديل" ولكن إخوتي أطلقوا عليّ "ابن فطومة" تبراء من قرابتي وتشكيكاً فيها...^١ إن ثيمة التضاد التي خرجت منها شخصية ابن فطومة، كما يتضح، جعلت الواقع حالة من الالتباس بالنسبة للشخصية، بل جعلته حالة من المواجهة الدائمة، فهذه أمّه ، تُخطب منه من قبل معلّمه الشيخ مغاغة، ولا يخفى الصراع الكبير، الذي يصنعه هذا الحدث في نفسية الإنسان، عندما يقوم هو بتزويج أمّه، وكيف تصبح صورة الأم - بتحوّلها هذا - حالة من الأرق، بدل أن تكون حالة من الاستقرار، ولهذا فقد كانت صورة للخيانة "خاننتي أمي"^٢، وليس هذا فقط، بل إن صورة الدين أصبحت صورة تحمل داخلها صورة التضاد، بين ما هو قيمّي، وبين ما هو ممارس "خانني رجل الدين"، فرجل الدين هو الذي يتزوج الأم، وألام يكون موقفها الموافقة، فتنهار القيم، وتصبح صورة الخيبة، هي التي تبني الشخصية المتضادة مع الواقع:

"الحق أنني سلكت سلوكاً، هو أحقّ بشخص أكبر مني سناً، وتجربة، تركت الأمور تجري كما يشاء الله، وأقنعت نفسي المتمردة، بأن الزواج حق للرجل والمرأة، وأن أمي ليست أمّاً خالصة، ولكنها امرأة أيضاً، وإننا خلقنا لنكابد الحقيقة ونصمد لها، ونتلقى نصيبنا من السرور والألم، بشجاعة المؤمنين . وحملت التجربة بكافة أبعادها على عاتقي، وفاتحت أمي بالموضوع بصراحتي المألوفة. وأبدت دهشة أحققتي وتمتمت:

- ما خطر لي ذلك ببال..

فقلت ببرود:

- ولكنه حق وعدل.

ومضيت أهضم خيبيتي على حين قالت هي في تلثم:

- أريد فرصة للتفكير..

اعتبرت ذلك أول إشارة للم وافقة؛ لتناقضه الشديد مع أسلوب الرفض الواضح، وانتظرت

بقلب كئيب حتى همست لي في حياء وارتيابك:

- لتكن مشيئة الله!

(١) المصدر نفسه، ص ٦ .

(٢) المصدر نفسه، ص ١٧ .

وتأملت كيف نزخرف أهواءنا بكلمات التقوى المضيئة، وكيف نداري حياءنا بقبسات
الوحي الإلهي...^١

هكذا تشكلت شخصية ابن فطومة في إطار التضاد بين القيم ا لمجردة، وبين الممارسة
المغلوبة لهذه القيم، الاجتماعي منها، والديني، وكذلك السياسي، فهذا الحاجب الثالث للوالي
يستولي على خطيبة ابن فطومة "حليمة عدلي الطنطاوي" فيأخذها زوجة رابعة، ولا يستطيع أحد
ردع السلطة:

"... ولكن هبط علينا قدر فنسف خطتنا . زحم حياتنا اله ادئة . الحاجب الثالث للوالي
فاقتحمنا كعاصفة . رأى ذات يوم حليمة فقرر أن يجعل منها زوجته الرابعة . وذعر الشيخ عدلي
الطنطاوي وقال لأستاذه الشيخ مغاغة:

- لا قبل لي بالرفض!

وفسخ الخطوبة. وهو يرتعد، فزقت حليمة إلى الحاجب الثالث ما بين يوم وليلة . انطويت
على نفسي زاه لاً وأنا أتساءل عن قلب حليمة، عن مشاعرها الدفينة، هل شاركتني
ألمي، أو أن لألاء الملك أسكرها وبهر عينيها...^٢

في هذا السياق المملوء بالهزيمة والظلم والقهر داخل الواقع، وارتعاناته، ومعطيته، التي
تحمل في داخلها عمق الاضطراب، والصراع بين أطرافه، تأتي صورة ال رحلة لتكون هي حالة
الخلاص، من هذا التضاد، وذلك من أجل الوصول إلى ما تستقر به الذات، وهنا تأتي سلطة
المتخيل؛ لتأخذ الذات إلى عوالم المثل، والبحث عن الحقيقة، التي تحمل في داخلها الإجابة
الشفافية عن كل التناقضات القائمة. وتصبح الحكمة والبحث عنها مطلب الذات، التي حاولت أن
تتجرد من الواقع، وتدخل عالماً آخر تأتي منه بالدواء الشافي للوطن " أريد أن أعرف، وأن أرجع
إلى وطني المريض بالدواء الشافي...^٣

ولكن السؤال هنا، هل بقيت رؤيا التضاد هي التي توجه "رحلة ابن فطومة" حتى في عالم
المتخيل؟ نعم . وهذا يتضح من رؤية ابن فطومة لمعنى الرحلة وعلاقة ذلك بصورة الإنسان،
فهناك الإنسان التاجر، الذي يرتحل للتجارة، وهناك الإنسان الذي يرتحل للمعرفة، والبحث عن
الحقيقة. ف"رحلة ابن فطومة" هي رحلة متضادة مع رحلة الواقع، وعلى الرغم من الايهام بالواقع
الا أنه ليس لدينا الا العلم المتخيل، وهي في إطار التقييم رحلة فلسفية تتخذ من العقل وسيلة
للوصول إلى عوالم الحق، من خلال القياس، والملاحظة القائمة على العقل والاستقراء.

^١ المصدر نفسه، ص ١٦ - ١٧

^٢ المصدر نفسه، ص ١٧

^٣ المصدر نفسه، ص ١٩

وفي هذا الإطار تتجلى صورة التضاد بين الذات، والآخر (الواقعي) في "رحلة ابن فطومة" و تتعمق حتى تصل حالة المفارقة بين المرتحلين، فكلهم من التجار إلا قنديل محمد العنابي (ابن فطومة)، فهو ممن يبحثون عن المعرفة، واكتشاف ما هو غير معروف بالنسبة له، وهنا يصبح عند محفوظ مصطلح "الرحالة" محمل بدلالة الباحث عن المعرفة، وتتسع هذه المفارقة في رؤية كل منهما في الحياة، وهذا الخط الفاصل بين الطرفين، هل الحياة تجارة مادية؟ أم هي رحلة عقلية، يعيشها الإنسان في إطار العدالة التي يهديها إليه العقل؟: "... همس الشيخ مغاغة في أذني:

جميع الرفاق من التجار وأنت الرحالة الوحيد بيننا!".

(...) وكنت أحترم التجارة، ولكنني آمنت بأن الحياة رحلة كما هي تجارة^١

إن ضرورة التضاد التي انطلق منها محفوظ هي محور الصراع الإنساني، بين الواقع الابدولوجي^٢، وبين المتخيل الذي يحاول أن يهدم ما هو قائم، أو يغيّر القيم السائدة، التي يرى العقل أنها لا تحقق العدل، وهنا يكون الانتقال إلى دار المشرق التي هي دار الوثنية، وهي بالتأكي د تضاد مع الوطن وهو دار الإسلام.

دار المشرق في صورتها هي إنتاج سلطة المتخيل عند محفوظ، وهي في الوقت ذاته، جاءت تعبيراً عن حالة التضاد، التي يعيشها ابن فطومة مع الواقع بكل معطياته العقلية، وقيمه التي جعلت ابن فطومة يبحث عن بديل هو "الرحلة"، ولكن هذه الرحلة وضعت الذات أمام حالات من التضاد الجديدة، التي واجهتها في حلّها وترحالها في عوالم المتخيل، فها هو في دار المشرق، يواجه الوثنية، ولا يمكنه أداء الصلاة إلا في الخفاء، ولا يستطيع أن يرتدي ملابسه، فعليه أن يبقى عرياناً كما هي حال أهل البلد، ولكن حالة التضاد التي تنشأ بين ما كان عليه في الوطن وما هو عليه الآن هي المحك الرئيس، وهي التي تضع ابن فطومة أمام البحث عن الحقيقة، التي يجدها في عذره لهؤلاء، وإدانتته لصورة الوطن على الرغم من إسلاميته: "الحق أنني لم أتماد في نقد مظاهر البؤس في هذا البلد ال وثني، الذي قد يكون له من وثنيته عذر، ولكن أي عذر أعتذر به عن أمثال هذه المظاهر في بلدي الإسلامي؟ وقلت لنفسني:

- انظر وسجّل واعترف بالحقيقة المرّة^٣.

(١) المصدر نفسه، ص ٢١.

(٢) الإيديولوجيا تعني "تسفاً من الأفكار و النظريات السياسية و الحقوقية و الدينية و الأخلاقية و الجمالية و الفلسفية، انظر، المعجم الفلسفي المختصر، دار التقدم، موسكو، ترجمة توفيق سلوم، ١٩٨٦.

(٣) رحلة ابن فطومة، ص ٢٨.

لقد مثلت صورة المشرق في غرائبيتها وعجائبيتها - كما وصفها ابن فطومة - حالة من التضاد التام مع الوطن، حيث نرى ابن فطومة يميل إلى تفضيل هذه الغرائبية والعجائبية على صورة الواقع (الوطن)، لأنه تزوج في دار المشرق، وأنجب أطفالاً من زوجه (عروسه)، ولكن لا بد من تقاطع الواقع مع المتخيل في لحظة ما، فهذا هو يطرد من دار المشرق، إلى دار الحيرة، عقاباً له على تربيته ولده على مبادئ الإسلام، إذ يعتبر ذلك كفراً في دار المشرق، ويغادر ابن فطومة دار المشرق، وهو في الحالة ذاتها من الحزن والأرق، التي غادر بها الوطن، وهنا تظهر صورة الرحالة الذي يبحث دائماً عن المعرفة، التي لا يمكن أن توجد في مطلقيتها في مكان واحد، والتي تتأني دائماً من خلال المقايسة والتناظر بين مظاهر الكون يقول:

"رجعت إلى حجرتي بعد ساعة - التي تحولت إلى السجن - فوجدتها خالية من الأم والأولاد، والحب والأمل . لحظة كئيبة تنداح في أعماق النفس فتتكشف الحياة عن حلم أو وهم . ولحق بي فام فرمقني بعطف وقال:

- تحمل كما يجدر برجل الرحالة!

فقلت بصوت متهدج:

- تبخّرت مسرات الحياة..

- إنها تتجدد وتجيء أيضاً بالعزاء..

وربت منكبي ثم قال:

- تعلم أن الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة..¹

هذه هي بذرة التضاد التي زرعت في نفس ابن فطومة "الرحالة" و"الرحلة" بمفهوميهما اللذين يعكسان حالة الانتقال ، والارتحال نحو الآخر بمستوييه المادي والمعنوي، ولهذا تستمر الرحلة من واقع متخيل، صنعه ابن فطومة "دار المشرق" إلى واقع متخيل جديد "دار الحيرة" بذات الظروف التي أوجدت "دار المشرق" فهذه "عروسه" زوجه، وأبناؤه، يصدر قرار الحكم بالتفريق بينهم وبينه ويطلب منه مغادرة البلاد والرحيل مع أول قافلة.

لقد رحل ابن فطومة إلى "دار الحيرة"، ولعل دلالة الاسم "الحيرة" الذي يدل على الالتباس جاء يؤكد صورة الاضطراب التي تكوّنت في نفس ابن فطومة، قبل دخوله هذه الدار الجديدة، وفي لحظة اقتلاعه من دار المشرق، التي كوّن فيها الأسرّة واعتقد انه استقر فيها، تعود إليه صورة الواقع "الوطن" فيجد حالة التواء بين اللحظتين، ويستحضر حالات التضاد التي عاشها وارتهايات الواقع، يقول:

"تحركت القافلة في ظلمة الفجر، في ظلمة الفجر المبشرة . شدّ قلبي إلى الورا، وغص حلقي بالحزن والدموع، وتجمعت النجوم فوقنا، تنظر إلينا وننظر إليها وانعدم العزاء . كما فارقت

¹ المصدر نفسه، ص ٥٤ - ٥٥.

وطني منذ حوالي خمس أعوام محبطاً بخيانة الأم، والحبيبة، والولادة. انقلبت رحالة مرة أخرى أفكر بالبلدان، والدفاتر ولكن أين القلب وأين العقل؟ وقلت إن هذه النجوم أقرب إلي من عروسة، والأبناء، وستظل القوافل تسير حاملة الأموال، والآمال، فمن يحمل الأحزان؟...^١

لقد أصبحت رؤيا التضاد عند ابن فطومة حالة ملازمة في رؤيته الآخر، فما هو يخرج من دار المشرق محملاً بروح "الشك" مما هو قائم "... ولكن أين القلب وأين العقل؟" لقد طرح ابن فطومة هذه الثنائية الضدية التي يحمله الإنسان في داخله "القلب" بما فيه من عواطف وأحاسيس يمكن لها أن تلغي الواقع و معطياته، و "العقل" الذي يحاكم الأشياء في إطار الواقع ومعطياته، إنها ثنائية الشك والإيمان، الشك عن طريق العقل، والإيمان عن طريق القلب، ومن هنا جاء اختيار نجيب محفوظ لاسم "الحيرة" ليكون عنوان "الواقع المتخيل" الجديد في رحلته.

فقد ابن فطومة الزوجة، والأبناء في دار المشرق، فقدهما في إطار العلاقة الضدية بين "الواقع" و "المتخيل" الذي أراد أن يربي أبنائه عليه، لكن حالة فقدان هذه جعلت "الرحالة" محملاً بروح الانفصال وفقدان الأمل، بل قل حالة اليأس مما هو كائن، وهنا تأتي لحظة الصراع بين الحقيقة والخيال في عبارة ابن فطومة التي جاءت في إطار السرد المنولوجي الذي يمثل أكثر أنواع السرد مقابلة للذات ومواجهة مع النوازح الداخلية للنفس "لحظة كئيبة تتداح في أعماق النفس فتتكشف الحياة عن حلم أو وهم".^٢

إن هذه العبارة، تفتح النص الروائي على حالة من الضدية، المؤطرة للروح الفلسفية للنص الروائي، الذي يكتبه محفوظ. فعندما تحدثت الدراسة على صورة "رواية ابن فطومة" بأنها رواية فلسفية تطرح القضايا الإشكالية في حياة الإنسان ورؤيته للواقع، من خلال حالة التقبل أو الرفض لهذا الواقع، فإن صورة الرحالة تأتي مطوّعة، من أجل أن تكون دائماً على حالة من الاستعداد، للتجاوز، والانتقال من واقع إلى آخر في إطار رؤيا التضاد، ولعل هذا ما تعنيه الدراسة بقولها إن صور الرحالة أصبحت عند محفوظ محمّلة بروح الباحث عن المعرفة غير المتوقفة، ولعل هذا ما يتجلى أيضاً فيما قاله "قام" لابن فطومة بعدما صدر الحكم بالفرقة بينه وبين زوجته وأبنائه: "تعلّم أن الرحالة لا يجوز أن يسعى وراء علاقة دائمة...".^٣

في بلاد الحيرة، يواجه ابن فطومة أشدّ مما واجهه في "الوطن" و "دار المشرق"، فما هو يطرد من دار المشرق؛ لأنه يعلم ابنه "الصلاة" إذ هي صورة التضاد التي عاشها في بلاد المشرق، وأما في بلاد الحيرة، فإنه يقضي في السجن عشرين عاماً بسبب الحكيم "ديزنج" حيث تزوّج "عروسة" زوجة ابن فطومة عنوة، حيث اتهم ابن فطومة، أنه يسخر من دين أهل الحيرة،

(١) المصدر نفسه، ص ٥٦.

(٢) المصدر نفسه، ص ٥٥.

(٣) المصدر نفسه، ص ٥٥.

ولهذا صودرت أملاكه، ومنها "عروسة" زوجه. ويبقى في السجن حتى تقوم الثورة على الملك "الإله"، ثم يصدر عفواً عن كل من في السجن؛ فتعود الحياة والأمل إلى ابن فطومة، فيرتحل إلى بلاد "الحلبة"، حيث يأتي هذا الارتحال، مدفوعاً بروح رفض الواقع، بحثاً عن الخلاص من الاضطراب، والارته ان لصورة الواقع وتجلياته المكروره في مجتمعات يختلف ظاهرها لكنها في جوهرها تتوافق.

"...وجعلت أتساءل عما يجدر بي عمله، هل أرجع إلى وطني قانعاً من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير؟. وكرهت العودة إلى الوطن على هذه الحال من الجذب والخيبة. وحدثني قلبي بأنني في وطني معدود من الأموات، لا أحد ينتظرنني، أو يهيمه مرجعي، هذا إذا لم يكن الموت قد أدركهم، فاستأصل ل الجذور، وبذر في أصولها الغربية والوحشة. كلا لن أرجع. لن ألتفت إلى الوراء بدأت رحالة، سأظل رحالة، وفي طريق الرحلة أسير. لأنه قرار وقدر، خيال وفعل، بداية ونهاية. فإلى دار الحلبة وما بعدها حتى دار الجبل. ترى كيف تتبدل اليوم يا عروسة وأنت بنت الأربعين؟^١

لقد انتهى مقام ابن فطومة في دار الحيرة بمجموعة من التساؤلات المصيرية في حياة الإنسان الباحث عن الحقيقة، وهي الرجوع أم المواصلة؟ أي القناع بما هو كائن أم البحث عما هو غير كائن: "هل أرجع إلى وطني قانعاً من الغنيمة بالإياب، أو أواصل الرحلة والاستطلاع ودق أبواب المصير؟".^٢

إن ثنائية التجاذب بين الاستمرار في الرحلة، أو الرجوع عنها إلى الوطن، شكّلت في لحظة المواجهة مع الواقع بشقية "الواقعي والمتخيل" حالة من التضاد بين "القدرية" و "الاختيار" فهل "الرحلة" بمفهومها الذي يتبناه نجيب محفوظ، وهو مفهوم البحث عن الحقيقة عن طريق العقل، وليس عن طريق القلب، أو ما يمكن أن يسمى الرحلة الفلسفية هي صورة للإنسان في صورته "القدرية" أم في صورته "الاختيارية"؟

لقد بين ابن فطومة في إطار حالة التضاد بين الرؤيتين أن الرجوع إلى الوراء هو صورة الفشل والتوقف، بل هو صورة الموت، فالعودة إلى الوطن، قرار مرفوض، وهو عودة إلى الجذب والخيبة، ولهذا فقد أخذ قراره بالمواصلة في إطار التفسير "القدرية" لرحلة الإنسان في الحياة، وبحثه عن الحقيقة، من خلال العقل "سأظل رحالة، وفي طريق الرحلة أسير. لأنه قرار وقدر، خيال وفعل، بداية ونهاية"^٣

دخل ابن فطومة دار الحلبة من خلال "الحس العقلي" الباحث عن الحرية في إطار التعدد والحوار مع الآخر وقبوله، ولعل كما ترى الدراسة هنا أن اختيار نجيب محفوظ لأسم "الحلبة" في

(١) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٢) المصدر نفسه، ص ٨٢.

(٣) المصدر نفسه، ص ٨٢.

دلالتها اللغوية وهي مكان الالتقاء والحوار والمواجهة يؤكد الصورة التي يتبناها ابن فطومة وهي صورة الحوارية والتقبل، ولهذا، فإنّ القارئ، أول ما يلفت انتباهه في هذا الباب، أن ابن فطومة قد حاور كل من قابله . وليس هذا فقط، بل تزوّج من دار ال حلبة مرّة أخرى من سامية، وأنجب منها أطفالاً، والتقى مرّة أخرى "عروسة" زوجته في دار المشرق، ولكنّه وجدها متزوجة من "بوذي" حيث تمنى لها السعادة والهناء، ومن اللافت أيضاً أن دار الحلبة هي "دار إسلام" ولكن الإسلام الذي يختلف عن الإسلام في دار "الوطن" حيث يفتح بلب الاجتهاد، ولكن دار الوطن أغلقته^١، وهنا تتجذّر رؤيا التضاد بين صورة الإسلام في دار الوطن ودار الحلبة^٢، ولعل الحوار التالي بين الشيخ حمادة السبكي - شيخ دار الحلبة- وابن فطومة يضعنا أمام هذه التضادية:

"وجلسنا غير بعيد من المحراب .قدمت له نفسي فقدم لي نفسه، الشيخ حمادة السبكي، من أهل الحلبة الصميمين. قلت بأنفاس مضطربة وصوت متهدج:

- ما تصورت الحلبة داراً إسلامية..

فقال بهدوء:

- الحلبة ليست من ديار الإسلام..

ولما قرأ دهشتي قال:

- الحلبة دار الحرية، تمثّل فيها جميع الديانات، فيها مسلمون، ويهود، ومسيحيون

وبوذيون، بل فيها ملحدون ووثنيون..

فزددت دهشة وسألته:

- كيف تأتّى لها ذلك يا مولاي؟

فقال ببساطة:

- كانت في الأصل وثنية، وأتاح ت حريتها الفرصة لكل من شاء، أن يدعو إلى

دينه، وتوزّعت الديانات أهلها، فلم تبق اليوم إلا قلة من الوثنيين في بعض الواحات!

فسألته واهتمامي يتصاعد:

- وبأي دين تلتزم الدولة؟

- الدولة لا شأن لها بالأديان..

- وكيف توفق بين أهل الملل والنحل؟

فقال بوضوح:

- تعامل الجميع على قدم المساواة الكاملة.

(^١) انظر، المصدر نفسه، ص ١٠٩.

(^٢) للمزيد حول الإسلام في أدب نجيب محفوظ يمكن الرجوع إلى :، أدب نجيب محفوظ، وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، فرج، السيد أحمد، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط١، ١٩٩٠

.....^١

لقد مثّلت دار الحلبه عند ابن فطومة، حالة التوازن التي يمكن للإنسان أن يكون عليها عندما يختار طريقة حياته الدينيّة، فدار الحلبه هي مساحة الحرّيّة، التي يمارس الإنسان عليها رغباته، واعتقاداته، دون أن يتعرّض للقهْر أو الظلم، وكما ترى الدراسة هنا، فإن رحلة ابن فطومة يمكن تصنيفها في إطار الرحلة الدينيّة التي تبحث من خلال العقل عن جوهر الدين، وليس عن وسائل الدين، فعندما تتوقّر الحرّيّة الدينيّة، يتوقّر الأمان النفسي للإنسان، ولعل هذا ما دفع ابن فطومة إلى البحث عن دار "الأمان" من خلال المقارنة التي كان يقيمها دائماً بين الواقع وارتهانته في دار الوطن وما يجده تحت سلطة المتخيل "الواقع الروائي" في محطات رحلته يقول في حوار مع الحكيم مرهم الحلبي:

"كنت أمس في زيارة للحكيم مرهم الحلبي، فقال لي : إن تحرير البشر أهم من هذه القشور..."

فهمت:

- القشور!.. لابد من الاعتراف بأساس أخلاقي.. وإلا انقلب العالم إلى غابة!

فقلت سامية:

- لكنه كان وما زال غابة!

وقال الإمام:

- انظر يا قنديل وطنك دار الإسلام ماذا تجد فيه؟..حكم مستبد يحكم بهواه، فأين

الأساس الأخلاقي؟ ورجال دين يطوّعون الدين لخدمته فأين الأساس الأخلاقي؟

وشعب لا يفكر إلا في لقمته، فأين الأساس الأخلاقي!؟

اعترضت حلقي غصّة فسكت. وعادتني ذكرى الرحلة...^٢

لقد كانت هذه معضلة ابن فطومة "الأساس الأخلاقي" الذي يفتقد في أرض الوطن، إذ تمارس الوسائل الأخلاقية، من أجل الوصول إلى الرغبات من خلال الدين وتطوعية من أجل النفس. وهنا يأتي دور الرحلة التي تهدف إلى البحث عن الخلاص ومحاولة الوصول إلى دار الأمان، فتبدأ الرحلة من جديد، ويدخل ابن فطومة دار الأمان، ولكن هل استقرّ به المقام؟ لقد قامت الحرب بين دار الحلبه ودار الأمان، مما دفع ابن فطومة إلى الرحلة إلى "دار الغروب"، وهي الدار التي تسبق "دار الجبل" التي لم يصلها أحد من الرخّالة، ولم يعرف عنها شيء، يدخل دار الغروب بنفس مضطربة هائمة لا تعرف طرقها، محمّلة بالخب وف من المجهول يقول:

(^١) رحلة ابن فطومة، ص ٨٨ - ٩٠.

(^٢) المصدر نفسه، ص ١١٢ - ١١٣.

"انغمست القافلة في ظلمات الفجر، وأنا أنظر إلى لا شيء، بقلب مشحون بالقلق . لم يكتب لي أن أرحل مرة بقلب مطمئن، ونفس صافية، ولكن تغشاني دائماً المخاوف . خيالي المحموم يحوم حول الحلبة، داعياً بالسلامة لسامية، ومصطفى وحامد. وهشام".^(١)

لقد كانت دار الغروب هي المحطة الأخير من أجل الوصول إلى "دار الجبل" ولعل اسم "الغروب" كما في دلالاته يعني النهاية، واكتمال المرحلة التي يعيشها أي شيء، ولكن في إطار ثنائية رؤيا التضاد التي بنيت عليه رحلة ابن فطومة، فإننا نجد أن الغروب يلد البداية، وان تضادية الحياة في دورتها، والبحث عن الحقيقة في إطار عدم التوقف عن البحث يلد رحلة أخرى إلى دار الجبل، على الرغم من أن دار الجبل هي التي تشكل محور الحل "بالنسبة إلى ابن فطومة "الإنسان"، حيث لم يجزم الرحالة بنهاية رحلته التي لم تعرف، ولم يذكرها التاريخ، كما ذكر غيرها من الرحلات

"... بهذه الكلمات خُتم مخطوط رحلة "قنديل محمد العنابي" الشهير بابن فطومة، ولم يرد في أي كتاب من كتب التاريخ ذكر لصاحب الرحلة بعد ذلك،

هل واصل رحلته أو هلك في الطريق؟

هل دخل دار الجبل وأي حظ صادفه فيها؟

وهل أقام بها عمره أو عاد إلى وطنه كما نوى؟

وهل يعثر ذات يوم على مخطوط جديد لرحلته الأخيرة؟

علم ذلك كله عند عالم الغيب والشهادة"^(٢).

مما تقدم، تجد الدراسة أن رؤيا التضاد، بين ارتهانات الواقع، وسلطة المتخيل، هي التي ولدت صورة "رحلة ابن فطومة"، في مستويها الخارجي والداخلي، وأن الروح الفلسفية، التي تبناها نجيب محفوظ في كتابة رواية "رحلة ابن فطومة" هي التي جسدت المسار الروائي لهذه الرواية، وبنيتها في إطار ثنائية تتعمق عبر الوعي الإنساني عند نجيب محفوظ، بحثاً عن صورة المطلق الذي يتوخاه من خلال المحايثة بين ثنائية الممارس والمسكوت عنه.

ولهذا فإن مش كلة الإنسان، أو رحلة الإنسان الكونية، التي قدمها محفوظ في روايته

هذه، تكاملت في جانبيها (المادي، والروحي)، المادي المتمثل في الواقع وممارساته، والروحي

الباحث عن المعرفة المطلقة والمتمثل في سلطة المتخيل، ووجود الإنسان مرتين بينهما.

قائمة المصادر والمراجع:

- (١) باختين، ميخائيل، الخطاب الروائي، ترجمة، محمد برادة، دار الفكر للدراسات، الطبعة الأولى، القاهرة - باريس، ١٩٨٧.

(١) المصدر نفسه، ص١٤١.

(٢) المصدر نفسه، ص١٥٨.

- (٢) الحجمري، عبد الفتاح، التخيل وبناء الخطاب الروائي في الرواية العربية، التركيب السردى، شركة النشر والتوزيع، الدار البيضاء، ط١، ٢٠٠٢.
- (٣) خليفة، عبد الله، نجيب محفوظ من الرواية التاريخية إلى الرواية الفلسفية، الدار العربية للعلوم ناشرون، منشورات الاختلاف، ط١، ٢٠٠٧.
- (٤) ريان، أمجد، صفائر الثنائيات المتضادة، قراءة في رواية "الزمن الآخر" لإدوار الخراط، مجلة فصول، م٨، ع١، ٢، ١٩٨٩.
- (٥) زيتوني، لطيف، معجم مصطلحات نقد الرواية، عربي، انجليزي، فرنسي، مكتبة لبنان، ناشرون، بيروت، لبنان، ط١، ٢٠٠٢.
- (٦) شوقي، سعيد، توظيف التراث في روايات نجيب محفوظ، إيتراك للنشر والتوزيع، القاهرة، ٢٠٠٠.
- (٧) عبد النور، جبور، المعجم الأدبي، دار العلم للملايين، بيروت ط١، ١٩٧٩.
- (٨) فرج، السيد أح مد، أدب نجيب محفوظ، وإشكالية الصراع بين الإسلام والتغريب، دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، المنصورة، ط١، ١٩٩٠.
- (٩) القضاة، محمد، نجيب محفوظ والتراث، مجلة الجديد في عالم الكتب والمكتبات، عمان، الأردن، ربيع، ١٩٩٧.
- (١٠) محفوظ نجيب، "رحلة ابن فطومة"، مكتبة مصر، دار مصر للطباعة ١٩٨٣.
- (١١) المعجم الفلسفي المختصر، ترجمة توفيق سلوم، دار التقدم، موسكو، ١٩٨٦.
- (١٢) محمد، رمضان بسطويسي، الخطاب الثقافي للإبداع الأدبي عند نجيب محفوظ، القضايا الفلسفية في عالم نجيب محفوظ الفلسفي، مجلة فصول، م١٦، ع٣، شتاء ١٩٩٧، ص ٣٠٠-٣١٥.
- (١٣) يقطين، سعيد، الرواية والتراث السردى، المركز الثقافي العربي، بيروت، ١٩٩٢.